محاضرة للدكتور أحمد الوائلي

الأمام علي الهادي

سفير السماء

نقلا عن ج٣ من كتاب

سيرة اهل البيت من محاضرات الشيخ احمد الوائلي

مصطفى ال مرهون

أعدها الخطيب الحسيني الحاج أبو غدير تحسين عبد محمد - ألمانيا

بسم الله الرحمن الرحيم

سفير السماء الإمام الهادي عليه السلام

ولهت إلى رؤيـاكُمُ وله الصادي … يــذاد عـن الورد الرويّ بـذوّادِ
محلى عـن الـورد اللذيذ مساغه … إذا طـاف ورّاد بـه بـعد ورّادِ
إذا ما بلغت الصادقين بني الرضا … فـحسبك مـن هادٍ يشير إلى هادِ
مـقاويلُ إن قـالوا بـهاليلُ إن دعـوا … وفـاة بـميعاد كـفاة لمـرتادِ
إذا أوعدوا أعفوا وان وعـدوا وفـوا … فهم أهـل فـضل عـند وعـد وإيـعادِ
كـرام إذا مـا انـفقوا المـال أنـفدوا … وليس لعـلم أنـفقوه بـإنفادِ
يـنابيع عـلم اللـه أطـواد ديـنه … فـهل مـن نـفاد إن عـلمت لأطـوادِ
نـجوم مـتى نـجم خـبا مـثله بـدا … فصلّى على الخابي المهمين والبادي
عـباد لمـولاهم مـوالي عـباده … شـهود عـليهم يـوم حشـر وإشـهادِ
هُـمُ حـجج اللـه اثـنتا عشـرة مـتى … عددت فثاني عشرهم خلف الهادي
بـميلاده الأنـباء جـاءت شـهيرة … فـاعظم بـمولود وأكـرم بـميلادِ(١)

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: في ولادته عليه السلام وسيرته

الإمام الهادي عليه السلام هو عاشر أئمة أهل البيت عليهم السلام، واسمه اسم محبّب

---

(١) الأبيات لأبي الغوث أسلم بن مهوز الطهوي المنبجي، نسبة إلى منبج، وهو الملقّب بشاعر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. مقتضب الأثر: ٤٩ـ ٥٠.

لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنه عليه السلام سميّ جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فاسمه علي كذلك. وهذا الاسم كان أعداء أهل البيت عليهم السلام وما يزالون يحاولون أن يسخروا منه وأن يهزؤوا. ويرد هنا تساؤل نابه هو أنه إذا كان الاسم وحده يثير كل هذا الكمّ الهائل من الحقد والغيظ والألم والسخرية في نفوس هؤلاء، فكيف بالمسمّى ـ وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذن؟ إن الحقد والغيظ والألم والسخرية عندهم من المسمّى كانت أضعافاً مضاعفة؛ ولذا فإن الأمويين حاولوا بكل الوسائل أن يقفوا بوجه كل شخص يحاول أن يُسمي أبناءه بهذا الاسم الشريف، فكانوا يصدّون اُولئك الذين يسمون أبناءهم باسم الإمام علي عليه السلام، حتى إنه يروى أن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان يكنّى أبا الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: والله لا أجمعهما لك، عليّ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[1].

وهكذا كان هذا الاسم الشريف يثير عند أعداء الله تعالى تلك الحساسية اتّجاهه، وهو ما ينبئ عن عدم وعي عند هؤلاء الذين يسعون هذا السعي، ويحاولون هذه المحاولات من أجل أن يطمسوا حقيقة من حقائق السماء، وأن يقفوا بوجه انتشار هذا الاسم الذي وضعته السماء وسمّت به فارسها وسيفها علي ابن أبي طالب عليه السلام.

وعلى أية حال فالإمام الهادي عليه السلام اسمه علي بن محمد (صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آبائهما وابنيهما). ويجمع هذين الإمامين

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، بل فيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

الكريمين الطاهرين ـ الإمام محمد الجواد والإمام علي الهادي عليهما السلام ـ تاريخ ميلاد واحد؛ حيث إنهما عليهما السلام ولدا كلاهما في شهر الله المعظم رجب المرجّب، وقد ورد في الدعاء الشريف: «اللهم إني أسألك بالمولودين في رجب؛ محمد بن علي الثاني، وابنه علي بن محمد المنتجب، وأتقرب بهما إليك خير القرب»(١).

وقد ولد الإمام محمد الجواد عليه السلام في اليوم العاشر من شهر رجب، وولد الإمام الهادي عليه السلام في اليوم الخامس منه، من أمّ ولد مغربية تسمّى سُمانة.

لماذا يتزوج الأئمة عليهم السلام من أمهات الأولاد؟

وهنا نقطة تثير الاهتمام والتساؤل حولها، وهي السبب في سعي الأئمة عليهم السلام إلى أن يكون أبناؤهم المعصومين عليهم السلام من الجواري اللواتي يطلق عليهن بعد ذلك أمهات الأولاد. وهو تساؤل مشروع؛ لأنه محاولة لتفسير هذا التصرّف الذي ربما يستغلق فهمه على البعض، أو لا أقل من أنه لا يلحظه ولا يلتفت إليه، بل ربما لا يعيره أي اهتمام؛ لعدم تمكنه من استكناه حقيقته. غير أن هذا الأمر في الواقع هو تصرّف يصبّ في مجال خدمة الإسلام الحنيف ونشره. ونحن نوجز الإجابة على هذا التساؤل بسببين، هما:

الأول: تحقيق جانب المساواة في المجتمع الإسلامي

إن سعي أئمة أهل البيت عليهم السلام الحثيث لفعل هذا الأمر الهامّ عندهم، ودأبهم عليه هو ـ انطلاقاً من حرصهم الشديد على تجسيد الإسلام،

---

(١) مصباح المتهجّد: ٨٠٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١٥، المصباح (الكفعمي): ٥٣٠، الصحيفة الهادية والتحفة المهدية: ١٠٢.

وتجسيد تعاليمه وتشريعاته ـ لبيان أن الإسلام دين العدل والمساواة؛ وأنه دين لا يفرّق بين الحرّ والعبد، ولا يُفضّل أحدهما على الآخر إلاّ بالتقوى. فالإسلام الحنيف حينما أطلق دعوته الثورية إلى المساواة بين الناس؛ حرّهم وعبدهم، وأسودهم وأحمرهم، لم يقنّنها نظرياً ثم تركها دون أن تدخل حيّز التطبيق، بل إنما وظّف من أجل تحقيقها، وسعياً وراء إبراز الإسلام على أنه دين قانون وعمل، وأنه منهج نظرية وتطبيق، ودستور واقع ومستلزمات، وظّف كل ما يمكن توظيفه من أدوات في سبيل نشر هذا المفهوم السامي، ومن أجل إعلانه على أنه حقيقة الإسلام وجوهره، وعلى أنه روح هذا الدين وحقيقته؛ إبرازاً لحقيقة الإسلام الناصعة بين الشعوب والمجتمعات البشرية كلّها.

ولهذا فإنه من الطبيعي جدّاً أن يسعى روّاد الإسلام وقادته وحملته إلى تطبيق هذه المبادئ وإخراجها من الجنبة النظرية إلى الجنبة العملية التطبيقية؛ فكان أن عمدوا إلى الزواج من الجواري؛ إيذاناً للآخرين بأنهن عند الله تبارك وتعالى لسن أقلّ أهمية من الحرائر، إذا ما جمعت بينهن جميعاً رابطة الإسلام والإيمان والتقوى[1]، بل إن الإماء والجواري المؤمنات أفضل مطلقاً عند الله تبارك وتعالى من الحرائر غير المؤمنات.

---

(١) ونستحضر هنا قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما أتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا امرأتان فقيرتان مسكينتان. فقال: «قد وجب حقّكما علينا وعلى كل ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين». ولمّا أعطاهما وساوى بينهما في العطاء قالت له إحداهما: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: «وبماذا فضّلني الله وشرّفني؟». قالت: برسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «صدقت، وما أنت؟». قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالي. فتناول عليه السلام شيئاً من الأرض ثم قال: «قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السلام فضلاً ولا جناح بعوضة». أنساب الأشراف: ١٤١.

إن إحدى المشاكل التي واجهها الإسلام حينما جاء أنه وجد مجموعة من الأنظمة الصارمة، والقوانين الصلبة، والموروثات المتشدّدة عند المجتمع الذي بُعث فيه، وعند والمجتمعات الأُخرى، وهي أنظمة وقوانين وموروثات جائرة وظالمة؛ لأنها تجنح إلى العصبية، وإلى التفريق بين الناس على أساس ألوانهم ودمائهم، وعلى أساس مذاهبهم ومعتقداتهم، وعلى أساس حريتهم وعبوديتهم، وعلى أساسات أُخرى بعيدة كلّ البعد عن مفاهيم الإنسانيّة الراقية، بل إنها ما أنزل الله بها من سلطان؛ بحيث إن العرب في الجزيرة العربية مثلاً كانوا لا يرون أي قيمة للإنسان إذا ما كان غريباً عنهم.

وهذه النظرة نظرة عامّة تتجه إلى كل فرد ليس عربياً، وليست موجهة إلى فئة معينة فقط دون فئة أُخرى، أو إلى عرق معين فقط دون عرق آخر، بل إنها نظرة تشمل الجميع. وهذا الأمر لم يكن ليرضي الإسلام الحنيف في شيء؛ ولذا فإنه سعى عبر كلّ أدواته إلى أن يكسر هذا النطاق الجائر، وإلى أن يحطّم هذا الطوق الذي فرضته تقاليد العرب وموروثاتهم وعاداتهم، وأن يبيّن للناس بأنه ليس هنالك من فرق بين أحد وأحد، ولا فضل لأحد على أحد، إلاّ بإيمانه بالله سبحانه وتعالى، وبتقواه وورعه والتزامه بالدين الإسلامي الحنيف وبأحكامه الشريفة. ومن هنا فإنه رفع شعار لا فرق بين عربي وغيره[١].

إذن فالإسلام أراد أن يكسر هذا الطوق، وأن يحطّم هذا القيد الذي

---

(١) حيث قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى». مسند أحمد ٥: ٤١١.

فرضته موروثات العرب الجاهلية على أبناء الجزيرة العربية، فكان أوّل من بادر إلى تحطيم هذه العادات والتقاليد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث تزوّج من الإماء، وتبعه بذلك من بعده رواد الإسلام وقادته وهم أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث تزوجوا من الإماء كذلك، وأولدوهنّ أولاداً صالحين شكّلوا بعد ذلك الحلقات الذهبية المتبقية من سلسلة الإمامة المطّهرة.

إذن فهذا أحد الأسباب الكامنة وراء تزوّج الأئمة عليهم السلام من الإماء، وإلاّ فإنهم لو أرادوا أن يتزوجوا من غيرهن فإنهم سوف يتزوّجون من أي بيت من بيوتات الشرف في المجتمع الإسلامي من غير أن يجرؤ أحد منها على أن يردّهم عليهم السلام، أو أن يمتنع عن تزويجهم؛ لأنهم ينتمون إلى بيت من أشرف بيوت أهل الأرض، وإلى نسب هو أشرف الأنساب وأعلاها، وإلى جدّ هو أشرف الآباء وأطهرهم وأفضلهم عند الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: نشر الإسلام بين الأصهار

إن التزويج بالإماء وإيلادهنّ، يعني أن هذا الولد سوف يذهب إلى أخواله وهو يحمل معه رسالة الإسلام إليهم. وهذا ما نراه واضحاً في تاريخنا؛ حيث إن هنالك الكثير ممن حملوا رسالة الإسلام إلى جماعات غير مسلمة عن طريق التزاوج والإصهار؛ لما للإصهار من دور في تمازج الدماء والتقائها بعضها ببعض، ولما ينطوي عليه الأمر من فوائد لا تعدّ.

فالإصهار كان يلعب دوراً في نشر الإسلام بين الناس؛ لأن الدماء حينئذٍ سوف تمتزج، ويلتقي بعضها ببعض مما يؤدّي إلى فتح المجال أمام الدين الإسلامي لينتشر بين أفراد قبيلة الأمّ.

ثالثاً: أن الله تعالى اختار أمهات الأئمة

ومنها كذلك أن الله سبحانه وتعالى قد اختار هؤلاء الجواري

الطاهرات لأن يلين شرف الحمل بامتداد النبوّة، فيحملن نور الإمامة، وينجبنّ للأئمة عليهم السلام أئمة معصومين طاهرين.

إذن فالأئمة عليهم السلام أرادوا أن يبلغوا عدّة أهداف من وراء تزوّجهم من الإماء منها ما ذكرناه من كسر الطوق الذي صرّح القرآن الكريم ببطلانه حاثاً الناس على التصاهر فيما بينهم؛ كونهم من قبائل تنتمي إلى عرق واحد بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. ومنها غير ذلك ممّا ذكرنا.

وبهذا فإننا نجد أن هنالك العشرات من الفوائد المترتبة على الإصهار.

وعلى أية حال فأمّ الإمام الهادي عليه السلام كانت أمة مغربية، لكن المؤرخين لم ينصّوا على جنسيتها، وكونها عربية أو غير عربية، فهم لم يذكروا عنها سوى أنها سُمانة المغربية. أمّا ولادة الإمام عليه السلام فقد كانت في قرية من قرى المدينة تسمّى «صوريا»؛ حيث إن الإمام الجواد عليه السلام كانت عنده ضيعة هناك، وكانت أمّ الإمام الهادي عليه السلام معه فيها، فولدت له الإمام عليه السلام في تلك الضيعة في الخامس من شهر رجب سنة (٢١٤) من الهجرة الشريفة.

المبحث الثاني: الخلفاء الذين عاصرهم الإمام عليه السلام

وبناءً على هذا التاريخ لولادة الإمام عليه السلام فإننا نعرف بعد التتبع لعمره الشريف الذي لم يتجاوز الأربعين عاماً بأنه عليه السلام قد عاصر سبعة من الخلفاء العباسيين؛ ذلك أن الخلفاء الذين كانوا في زمنه عليه السلام لم يكونوا ممّن طالت فترة خلافتهم، بل إنهم كانوا يمكثون فترة قصيرة ربما تعد بالشهور على

(١) الحجرات: ١٣.

كرسي الخلافة، ثم يأتي بعدهم التالي. وقد ابتدأت حياته ﷺ بخلافة المعتصم، ثم بعد ذلك بقية الخلفاء الين جاؤوا بعده، وهؤلاء الخلفاء هم:

الأول: محمد المعتصم بن الرشيد، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢١٨) هإلى سنة (٢٢٧) ه.

الثاني: الواثق بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٢٧) ه إلى سنة (٢٣٢) ه.

الثالث: المتوكّل بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٣٢) هإلى سنة (٢٤٧) ه.

الرابع: المنتصر بن المتوكّل، وقد امتدت فترة خلافته من شهر شوّال سنة (٢٤٠) هإلى شهر ربيع الأول سنة (٢٤٨) ه.

الخامس: المستعين بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٤٨) هإلى سنة (٢٥٢) ه.

السادس: المعتزّ بن المتوكّل، وقد امتدت فترة خلافته من سنة (٢٥٢) هإلى سنة (٢٥٥) ه.

السابع: المهتدي بن المعتصم، وقد امتدت فترة خلافته من ليلة بقيت من شهر رجب المرجّب سنة (٢٥٥) هإلى منتصف شهر رجب المرجّب سنة (٢٥٦) ه[١].

وكما رأينا فإن هؤلاء كانت فترات خلافتهم قصيرة، وربما كان ذلك والله أعلم بسبب انتقام الله عزّ وجلّ منهم على أيدي الأتراك وغيرهم بعد أن تسلطوا – الأتراك - على العباسيين فتصرّفوا بهم وبمقدرات

(١) أي أن مدّة خلافته سنة إلّا خمسة عشر يوماً.

الدولة، ومنحوا أنفسهم صلاحية تعيين الخليفة وإزاحته وإقالته عن الخلافة، فكانوا كلما عنّ لهم أن يضعوا خليفة على كرسي الخلافة وضعوه، وإذا عنّ لهم أن يقيلوه عنه أقالوه وجاؤوا بآخر غيره مكانه(١).

فكأن الله تبارك وتعالى أراد أن يردّ إلى العباسيين سهمهم الذي نحروا به آل بيت محمد صلى الله عليه وآله، ويضعه في نحورهم من أجل ما فعلوه بأهل هذا البيت الطاهر عليهم السلام.

وهكذا فكما أن العباسيين تسلّطوا بالظلم والقهر على المسلمين، وحاربوا أهل الدين، وعلى رأسهم أئمة البيت عليهم السلام، وآذوهم أشدّ الأذى، فكذلك جاء الأتراك ففعلوا مع العباسيين الفعل نفسه، حيث إنهم تسلّطوا عليهم، وآذوهم، وبدؤوا يتلاعبون بهم، ويحرّكونهم على رقعة الخريطة السياسية للدولة الإسلامية كما يحركون بيادق الشطرنج. وبهذا كان الخلافاء يفعلون كل ما يمليه عليهم الأتراك وما يقولونه لهم دون أن يستطيعوا أن يردّوا ذلك عنهم ودون أن يتمكنوا من أن يمتنعوا عن تنفيذ

---

(١) والدليل على هذا ما يذكره السيوطي في المقام عن المعتز وسلفه المستعين حيث قال عن المستعين: لما تنكّر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد... فقصدوا الحبس وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه وخلعوا المستعين. تاريخ الخلفاء ١٤٨.

وعن المعتزّ قال: وكان المعتز مستضعفاً مع الأتراك... فاجتمع الأتراك على خلعه... فلبسوا السلاح، وجاؤوا إلى دار الخلافة، فبعثوا إلى المعتزّ أن اخرج إلينا، فبعث يقول: قد شربت دواء وأنا ضعيف. فهجم عليه جماعة وجرّوا برجله، وضربوه بالدبابيس، وأقاموه في الشمس في يوم صائف، وهم يلطمون وجهه ويقولون: اخلع نفسك. ثم أحضروا القاضي ابن أبي الشوارب والشهود، وخلعوه... ثم إن الملأ أخذوه فأدخلوه الحمام، فلما اغتسل عطش، فمنعوه الماء، ثم أُخرج ـ وهو أول ميت مات عطشاً ـ فسقوه ماء بثلج فشربه وسقط ميتاً. تاريخ الخلفاء ١٤٩.

وإذا كان المعتزّ أول ميت مات عطشاً كما يدّعي السيوطي، فأين السبط الثاني لرسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وأهل بيته إذن، وهم الذين لم يذوقوا الماء ثلاثة أيام حتى استشهدوا؟

أوامرهم؛ خوفاً من أن تمتدّ لهم يد التغيير والإزاحة عن كرسي الخلافة.

وهكذا كان الخلفاء العباسيون آنذاك يفعلون كل ما يمليه عليهم الأتراك، حتى قال فيهم الشاعر:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما يقول الببغا[(١)]

وقد أشار إلى هذا المعنى أيضاً أبو فراس الحمداني (رضوان الله عليه) حينما وقف في معسكر بني العباس وراح يخاطبهم:

أبلغ لديك بني العباس مالكة لا يدّعوا ملكها ملاكها العجمُ
أي المفاخر أمست في منازلكم وغيركم آمر فيها ومحتكمُ؟
أنى يزيدكمُ في مفخر علم؟ وفي الخلاف عليكم يخفق العلمُ
يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ
خلّوا الفخار لعلّامين إن سئلوا يوم السؤال وعمالين إن علموا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ولا يُضيعون حكم الله إن حكموا
تنشا التلاوة في أبياتهم سحراً وفي بيوتكمُ الأوتار والنغمُ
منكم علية أم منهم وكان لكم شيخ المغنين إبراهيم أم لهم؟[(٢)]

المبحث الثالث: موقف المتوكّل من أهل البيت عليهم السلام

إذن فقد وصل الأمر بالخلفاء العباسيين في تلك الفترة إلى أن يحكم

---

(١) البيتان لجنيذ الكاتب، وقبلهما:

خلافةٌ جائرةٌ فاسدةٌ ما تبتغى
صاحبُها محتجبٌ يفرق من حرِّ الوغى

ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ٤٨٨ / ٧٩١، باختلاف يسير، مع ذكر مناسبة قولهما في المستعين.

(٢) الغدير ٣: ٤٠١ ـ ٤٠٢.

بعضهم بالأشهر وليس بالسنوات؛ فالمنتصر بن المتوكل مثلاً كانت كل فترة خلافته ستة أشهر، وهذا ما وعده به الإمام عليه السلام حيث أخبره بأن عمره سوف يقصر؛ ذلك أن المتوكّل كان عنده مخنّث يدعى عبادة، فكان يشدّ على بطنه مخدّة، ويرقص بين يدي المتوكّل، والمغنون يغنون: أقبل البطين، خليفة المسلمين. يعنون أمير المؤمنين علياً عليه السلام، والمتوكّل يشرب ويسمع له ويضحك. وكان ابنه المنتصر حاضراً، فقال لأبيه: إن الذي يحكيه[1] هذا الكلب، ويُضحك منه الناسَ هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه، إذا شئت، ولا تطعمه هذا الكلب وأمثاله.

فقال المتوكل: غنوا:

غـار الفـتى لابـن عمّه	رأس الفتى في حِرِ امّه

وهو جواب بذيء هازئ ساخر دون وازع من إيمان أو دون ورع وتقوى. ثم إن المنتصر سمعه يوماً يشتم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام فسأل الإمام الهادي عليه السلام وقال: سيدي من يشتم جدتك الزهراء ما هو حكمه؟ فقال له: «قد وجب عليه القتل». فقال: حتى ولو كان أبي؟ فقال عليه السلام: «إلّا إن من قتل أباه لم يطل عمره». فقال المنتصر: لا أبالي إذا أطعت الله بقتله ألّا يطول عمري. فقتله[2]. ذلك أن في قتل الأب قطيعة للرحم، وهي منهي عنها مع الأب ولو كان كافراً، وقطيعة الرحم كما هو معلوم تقصّر الأعمار.

---

(١) أي يقلّده ويفعل مثله.

(٢) انظر: شجرة طوبى ١: ١٥٧، الإمامة وأهل البيت عليهم السلام ٣: ١٩٥، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥.

إذن فالمنتصر أقسم أن يقتل أباه؛ لأنه كان يشتم الزهراء عليها السلام، ويشتم أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن يمرّ بتاريخ المتوكل فإنه يجد أن كل المؤرخين ينصّون على أنه قد أساء إساءة لا حدود لها للإمام علي عليه السلام ولأهل بيته عليهم السلام جميعاً، فكان يعمل جهده، وكل ما في وسعه وما يتمكّن منه من أجل إلحاق الأذى والضرر والقتل بهم عليهم السلام حتى إنه لم يكتفِ بالأحياء منهم، بل عمد حتى إلى من انتقلوا عن الدنيا إلى الرفيق الأعلى، فراح يشتمهم كما كان يفعل مع أمير المؤمنين علي ابن أبي الطالب عليه السلام، فكان يسبه ويشتمه ويستهزئ به متلذّذاً شامتاً دون أن يكون فيه أدنى غيرة أو حمية على الإسلام وعلى قادة الإسلام ورجالاته الذين اختصّهم الله تبارك وتعالى واصطفاهم.

وهذا ما حدا ببعض الشعراء ـ وهو البحتري ـ أن يذكّرهم بحقيقة أولوية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بهم، فقال:

وإن علياً لأولى بكم ... وأزكى يداً عندكم من عمز
وكل له فضله والحجو ... ل يوم التراهن دون الغرز[1]

وكذلك يذكّرهم أبو فراس الحمداني رحمه الله بحقيقة أولوية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

أمّا علي فأدنى من قرابتكم ... عند الولاية إن لم تكفر النعمُ
أينكر الحبر عبد الله نعمته ... أبوكمُ أم عبيد الله أم قثمُ؟
بئس الجزاء جزيتم في بني حسن ... أباهمُ العلم الهادي وأمهمُ
لا بيعة ردعتكم عن دمائهمُ ... ولا يمين ولا قربى ولا ذممُ[2]

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٣ ـ ٤٤، تاريخ الإسلام ١٨: ٤١٨.
(٢) الغدير ٣: ٤٠٠.

ولكل هذا فإن المنتصر عمد إلى قتل أبيه مستنكراً عليه فعله. وهكذا بيّت المنتصر لأبيه حتى قتله، فكان أن وهكذا وقع لحم خليفة المسلمين ومن يدعي له بأنه أمير المؤمنين، ومحيي السنة[١] في كؤوس الخمر التي حرّم شربها مهدداً شاربيها بالعقوبة الكبيرة. ومن هنا يقول الشاعر:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزمرٍ ومُدامِ
بين كأسين أردياه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحمامِ
يقظ في السرور حتى أتاه ... قدر الله خفية في المنامِ[٢]

في حين أن شاعراً يُدّعى له بأنه شيعي، وهو البحتري ـ ونحن نقول هذا ببالغ الأسف لأنه يخاطبه ممجّداً إياه ـ يقول له:

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكمْ
حسن يضيء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرمْ
قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصمْ
المرتضى بن المجتبى ... والمنعم بن المنتقمْ
نلنا الهدى بعد العمى ... بك والغنى بعد العدمْ
اسلم لدين محمد ... فإذا سلمت فقد سلمْ[٣]

---

(١) ورد ذلك في أرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.
وقال السيوطي: حتى قال قائلهم: الخلفاء الثلاثة... والمتوكّل في إحياء السنة وإماتة التجهّم. تاريخ الخلفاء: ١٤٣.
وقال: رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بقليل من السنة أحييتها. تاريخ الخلفاء: ١٤٥.

(٢) البيتان لأحمد بن إبراهيم الأسدي. بحار الأنوار ٥: ١٩٢ـ١٩٤/ ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦/ ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

(٣) الكنى والألقاب ٢: ٦٦، الوافي بالوفيات ٢٧: ٢٧٤.

والبحتري هذا هو الذي يقول فيه أيضاً:

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهرُ ... وألام من كمد عليك وأعذرُ
بالبرّ صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تفطرُ
فانعم بيوم الفطر عيناً إنه ... يوم أغرّ من الزمان مشهّرُ
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصرُ
والشمس طالعة توقد في الضحى ... طوراً ويطفيها العجاج الأكدرُ
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ
ذكروا بطلعتك النبي فهلّلوا ... لما طلعت من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهو ولا يتكبّرُ
أيدت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبي عن الحق المبين وتخبرُ
ووقفت في برد النبي مذكّراً ... بالله تنذر تارة وتبشّرُ(١)

فهل مثل هذا يمكن أن يعدّ من شعراء الشيعة، كما يعدّ دعبل بن عبد الله الخزاعي؟ إننا نعرف كيف كان يقف دعبل بوجه العباسيين ويخاطبهم بصريح العبارة بأنهم قد آذوا العلويين، وقتلوهم، وشرّدوهم، فهو يقف في وجه المأمون مثلاً ويقول له:

تأسفت جارتي لما رأت زوري ... وعدّت الشيب ذنباً غير مغتفرِ

حتى يقول:

لولا تشاغل نفسي بالألى سلفوا ... من أهل بيت رسول الله لم أقرِ

(١) الكنى والألقاب ٢: ٦٥. وفيات الأعيان ٦: ٢٥ ـ ٢٦.

وفـي مـواليك للـمحزون مشـغلة ... مـن أن تـبيت لمـفقود عـلى أثـرِ

حتى يقول:

يا أمّة السوء ما جازيت أحمد عن ... حسن البلاء على التنزيل والسورِ
خلفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافة الذئب في أبقار ذي بقرِ
وليس حي من الأحياء نعلمه ... من ذي يمانٍ ومن بكر ومن مضرِ
إلّا وهم شركاء في دمائهمُ ... كما تشارك أيسار على جزرِ
قتلاً وأسراً وتحريقاً ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزرِ
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذرِ (١)

ونجده يقف في جانب آخر ويقول:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصاتِ
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمراتِ
ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفناتِ
منازل وحي الله ينزل بينها ... على أحمد المذكور في السوَراتِ
منازل قوم يهتدى بهداهمُ ... فتؤمن منهم زلّة العثراتِ
منازل كانت للصلاة وللتقى ... وللصوم والتطهير والحسناتِ
منازل جبريل الأمين يحلها ... من الله بالتسليم والرحماتِ
منازل وحي الله معدن علمه ... سبيل رشاد واضح الطرقاتِ
ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعفُ للأيام والسنواتِ (٢)

فهذا الرجل الناصح في حبّه لله تعالى، ولرسوله النبي الكريم صلى الله عليه وآله،

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ١٠٤ ـ ١٠٧.
(٢) ديوان دعبل الخزاعي: ٥٨ ـ ٦٠.

ولأهل بيته الطاهرين الكرام عليهم السلام هو الذي يحقّ لكل شيعي أن يجعله موضع افتخار له، وهو من يستحقّ بأن يقال له بأنه شيعي، وليس ذلك التافه الذي يسير في مسالك الظالمين وركابهم.

وهذه التائية العظيمة كلما قرأتها ذبت أمامها، ووالله إني لأرى أن على كل شيعي أن يحفظها؛ لأنها تسجل كلّ مشاعرنا ونبضنا وانتمائنا إلى هذا المذهب الإلهي، وإلى هذا البيت النبوي الطاهر، وهذا ما ينبغي أن يكون. أما أُولئك السائرون في ركب الظلمة ـ وهم كثر، وموجودون في كل دور ـ فينبغي ألّا يعاروا أي اهتمام، وهم كما ذكرنا موجودون في كل آن ومكان، بل إننا نجد حتى في عصورنا الحاضرة أُدباءَ وكتّاباً تافهين من أُصحاب الأقلام المأجورة التي ليس لها من قيمة تذكر أبداً؛ لأنها تسخّر أقلامها لخدمة الظلم والظالمين دون أن تدافع عن دينها وعن أخلاقها ومقدّساتها، هذا في مقابل مجموعة من الأُدباء والكتّاب من أصحاب الكلمة الحرّة، والأقلام التي تسطر الحقّ وتسجله.

وهؤلاء مع أنهم ممّن لا يزالون حتى الآن يأكلون من حقوق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، لكنهم لا يفكّرون أبداً في أن ينبروا للدفاع عنه وعن مذهبه، حتى ولو على مستوى المفردة المنصفة، فهم لا يكلّفون أنفسهم بأن ينتصروا له، بل إنهم يتمادون أكثر، فيضعون أنفسهم في خدمة السلاطين، ويسيرون في ركابهم. فهل إن أبناء هذا اللون يمكن أن يسموا شعراء الشيعة؟ ومن هنا فإننا نقول لهذا الذي يخاطب المتوكل، فيمجد الباطل به بقوله:

نلنا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

نقول له: أي هدى هذا الذي كان عند المتوكّل، وهو الذي كان يعاقر

الخمرة من أوّل الليل حتى الصباح، ويدأب على سماع الغناء، ويصرّ على فعل كل المنكرات والمحرمات التي نهى الله تبارك وتعالى عنها؟ وأي هدى هذا وهو الذي يأبى إلّا أن يلج في كل معصية له جلّ شأنه؟

والغريب أن بعض الشعراء يرثيه فيقول:

خلت المنابر واكتست شمس الضحى ... بعد الضياء ملابس الإظلامِ
ما كادت الأسماع إكباراً له ... يسمعين للإجلال والإعظامِ
ملأ القلوب من الغليل فأنزفت ... ماء الشؤون مدامع الأقوامِ
هجمت فجيعته على كبد الورى ... فأذابت الأرواح في الأجسامِ

مع أنه نفسه يصور لنا حادثة قتل المتوكّل ووزيره، واختلاط دمييهما ولحميهما بكؤوس الخمر. فإذا كان كما وصف، فكيف يعود بعد ذلك ليرثيه بهذا الرثاء المارّ، والذي لا يستحقّه؟ أمّا تصويره لنا حادثة قتل المتوكّل ووزيره، فهي في قوله:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزمرٍ ومُدامِ
بين كأسين أردياه جميعاً ... كأس لذّاته وكأس الحمامِ
يقظ في السرور حتى أتاه ... قدر الله خفية في المنامِ(١)

ونقول له: إذا كنت أنت القائل فيه كذلك، فكيف ترثيه مع ذلك بذلك الرثاء الذي تجعل فيه منه ولياً من أولياء الله؟ أولست أنت الذي تصف مقتله بهذا الوصف الذي ينكره الأولياء؟

رجع

وعلى أية حال فالإمام عليه السلام ولد في عام (٢١٤) هجرية، وعاصر

(١) البيتان لأحمد بن إبراهيم الأسدي. بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

تلك المجموعة من خلفاء بني العباس الذين قصرت أعمارهم وقصرت فترة خلافتهم بسبب معاملتهم الظالمة والجائرة لأهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا. وكان الإمام عليه السلام في المدينة حينما بدا للمتوكّل أن يرسل خلفه؛ لظنه بأن الإمام الهادي عليه السلام كان يبغيه الغوائل، فهو يعرف بأن الناس يلتفّون حوله؛ بدافع معرفتهم به، ولمكانته العلمية والروحية في الإسلام، ولقربه من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وهذا الأمر هو ما كان المتوكّل يظن معه بأنه سوف يخلق له المشاكل السياسية المتمثّلة بالوقوف في وجه سلطته وخلافته.

ولذا فإنه استدعى أحد قوّاده وهو يحيى بن هرثمة وقال له: اذهب إلى المدينة، واحمل إليّ علي بن محمد الملقب بالعسكري، بعد أن تعطيه هذا الكتاب، ولا تؤذِه، بل احمله إليّ معظماً مكرّماً، وانزل بنزوله وارتحل بترحاله، وقم بخدمته.

يقول يحيى: وكان في أصحابي الذين خرجوا معي قائد من الشراة[1]، وكان لي كاتب متشيّع، وأنا على مذهب الحشوية، وكان ذلك الشاري يناظر الكاتب، وكنت أسمع إلى مناظرتهما لقطع الطريق. فلما صرنا وسط الطريق قال الشاري للكاتب: أليس من قول صاحبكم علي بن أبي طالب: «ليس في الأرض بقعة إلّا وهي قبر، أو ستكون قبراً»؟ فانظر إلى هذه البرية أين من يموت فيها حتى يملأها الله قبوراً كما تزعمون؟ وتضاحكنا ساعة إذ انخذل الكاتب.

وهذا هو حال المعاندين، فمع أن هذا الأمر ـ وهو أنه ليس في الأرض

---

(١) أي الخوارج.

بقعة إلّا وهي قبر - مفروغ منه، وقد أشار إليه الخيام بقوله:

كُـلُّ ذَرّاتِ هـذِهِ الأَرْضِ كـانَتْ أَوْجُـهاً كَـالشُّمُوسِ ذاتَ بَـهاءِ

اجْلُ عَـنْ وَجْـهِكَ الغُـبارَ بِـرِفْقٍ فَـهْوَ خَـدٌّ لِكَـاعِبٍ حَسْـنَاءِ[١]

ألّا إن هؤلاء قوم رين على قلوبهم، فسدروا في غيّهم، وسفّوا في كفرانهم حيث سفّ العتاة.

وعلى أية حال يقول يحيى: ثم سرنا حتى دخلنا المدينة، فقصدت بيت أبي الحسن علي بن محمد بن الرضا عليه السلام، فدخلت عليه فقرأ كتاب المتوكل وقال: «انزلوا». فلما حضرت إليه من الغد ـ وكنا في تموز أشدّ ما يكون من الحر ـ فإذا بين يديه خيّاط وهو يقطع من ثياب غلاظ له ولغلمانه، ثم قال للخياط: «اجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمد على الفراغ منها يومك هذا، وبكر بها إليّ في هذا الوقت».

ثم نظر إليّ وقال: «يا يحيى، اقضوا وطركم من المدينة في هذا اليوم، واعمل على الرحيل غداً في هذا الوقت».

قال: فخرجنا وإنما بيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام، فما يصنع بهذه الثياب؟ ثم قلت في نفسي: هذا رجل لم يسافر، وهو يقدر أن كل سفر يحتاج فيه إلى هذه الثياب، والعجب من الرافضة حيث يقولون بإمامة من هذا فهمه. فعدت إليه في الغد في ذلك الوقت، فإذا الثياب قد أحضرت، فقال لغلمانه: «ادخلوا، وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس». ثم قال: «ارحل يا يحيى». فقلت في نفسي: هذا أعجب من الأول، أيخاف أن يلحقنا الشتاء في الطريق حتى يأخذ معه اللبابيد والبرانس؟

---

(١) رباعيات الخيام: ١.

فخرجت وأنا أستصغر فهمه، حتى إذا وصلنا إلى موضع المناظرة في القبور ارتفعت سحابة، واسودت وأرعدت وأبرقت، حتى إذا صارت على رؤوسنا أرسلت برداً مثل الصخور، وقد شدّ على نفسه وغلمانه الثياب الغلاظ، ولبسوا اللبابيد والبرانس، وقال لغلمانه: «ادفعوا إلى يحيى لبادة، وإلى الكاتب برنساً». وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قُتل من أصحابي ثمانون رجلاً، وزالت، ورجع الحرّ كما كان، فقال لي: «يا يحيى، أنزل من بقي من أصحابك ليدفن من مات، فهكذا يملأ الله هذه البرية قبوراً».

قال: فرميت نفسي عن الدابة، واعتذرت إليه، وقبلت ركابه ورجله، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنكم خلفاء الله في أرضه، وقد كنت كافراً وإني الآن أسلمت على يديك يا مولاي. ثم تشيعت ولزمت خدمته إلى أن مضى.

فلما وصلنا إلى المتوكّل، أمر بأن يحجب عنه يومه، وأن ينزل في خان يعرف بخان الصعاليك، وأقام يومه ثم تقدم المتوكل بإفراد دار له فانتقل إليها، وأقام عليه السلام مدة مقامه بـ«سر من رأى» مكرّماً في ظاهر حاله؛ لأن المتوكل كان قد جهد في إيقاع حيلة به فلم يتمكّن من ذلك[1].

وبهذا فإن ابن هرثمة هذا قد أصبحت لديه قناعة بأن الإمام الهادي عليه السلام وآباءه عليهم السلام هم الذين ينبغي أن يلتفّ جميع المسلمين حولهم دون غيرهم؛ وليس الشيعة فقط كما تقدم من تعجّبه من اتباعهم إيّاه عليه السلام، وهكذا شايع الإمام عليه السلام، ولزم طاعته وخدمته، وبقي معه.

والمتوكل إذ أمر بوضع الإمام عليه السلام في خان الصعاليك، فإنه إنما كان يريد

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٩، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٦٦ / ٢٤٧١، الثاقب في المناقب: ٥٥١ ـ ٥٥٣ / ٤٩٤.

بذلك أن يحطّ من قدر الإمام ﷺ دون أن يعلم بأن قدر الإمام كبير عند الله سبحانه وتعالى، وعند العارفين بحقّه وحقّ أهل البيت ﷺ؛ ولذا فإن الإمام ﷺ لم يكن ينقص هذا التصرّف منه شيئاً، فالعظيم عظيم وإن أُجلس على الثرى، أما الوضيع فيبقى وضيعاً وإن أُطعم بأواني الذهب، فالذهب لا يغير من حقيقة الوضيع شيئاً، وكذلك الجواد الأصيل فإنه يبقى جواداً وإن ترك دون سرج، فهو أصيل في تصرفاته، وفي عدوه، وفي كل شيء، أما الحمار فيبقى حماراً وان جُلّل بالذهب والحرير:

كن عالماً واجلس بصفّ النعالْ	خير من الصدر بغير الكمالْ
إذا تصدّرت بلا آلة	صيرت ذاك الصدر صفّ النعالْ[١]

ولننظر الآن الى خان الصعاليك الذي أنزل فيه المتوكل الإمام علياً الهادي ﷺ كيف أصبح، فقد أصبح قباباً من ذهب تناطح السماء علواً وسموّاً، ومناراً يهتدي به السالكون وهي تعكس أشعة الحقّ، ومرآة تعكس أشعّة الشمس لرائيها عن مسافة بعيدة. مع أننا لا نقول بأن قيمة هذه القبور هي من قيمة هذا الذهب؛ لأن الذهب لا قيمة له أمامهم ﷺ بعد أن زهدوا فيه وتركوه لغيرهم؛ لأنه لو كان له قيمة حقيقية لكانوا ﷺ أول من بادر إليه وإلى جمعه، ولكنهم لأنهم يعرفون بأنه لا قيمة له فقد زهدوا فيه وفي الدنيا كلها. أما قيمتهم الحقيقية فهي تنبع من تلك العروش التي بنوها لهم في قلوب الأحرار، وفي نفوسهم، وفي عقولهم.. بنوها بتلك الأخلاق العالية، والتربية الإلهية السامية الرفيعة، وبذلك الإيمان الناصع، وبذلك الارتباط الفريد والصادق مع الله سبحانه وتعالى، وهو

---

(١) البيتان للإسفرايني. تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٢٣، المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٥٤.

ارتباط لا حدود له.

المتوكل ينذر أموالاً كثيرة

وبعد فترة من الزمن مرض المتوكل، فنذر لله إن رزقه الله تبارك وتعالى العافية أن يتصدّق بمال كثير، فلما سلم وعوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير: كم يكون؟ فاختلفوا؛ فقال بعضهم: ألف درهم. وقال بعضهم: عشرة آلاف. وقال بعضهم: مئة ألف. فاشتبه عليه الأمر، فقال له الحسن وكان حاجبه: إن أتيتك من هذا بالخبر الحقّ والصواب، فما لي عندك؟ فقال المتوكّل: إن أتيت بالحقّ، فلك عشرة آلاف درهم، وإلّا أضربك مئة مقرعة. فقال: قد رضيت.

ثم أتى الإمام الهادي عليه السلام فسأله عن ذلك، فقال الإمام عليه السلام: «قل له: يتصدّق بثمانين درهماً».

فرجع إلى المتوكل فأخبره، فقال: سله: ما العلّة في ذلك؟ فسأله فقال: «إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[1]، فعددنا مواطن رسول الله صلى الله عليه وآله، فبلغت ثمانين موطناً».

فرجع إليه فأخبره، ففرح وأعطاه عشرة آلاف درهم[2].

استنطاق الرواية الشريفة

ونحن حينما نضع هذه الرواية الشريفة على طاولة البحث والاستنطاق، ونخضعها إلى الفحص من خلال التمحيص في دقائقها، فإننا نخرج بنتائج عديدة هامّة، منها:

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٠٦، الاحتجاج ٢: ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

أولاً: أن الأئمة عليهم السلام كلهم بلا استثناء أجوبتهم جميعها بلا استثناء إنما هي امتداد للقرآن الكريم، واستمداد منه. وهم بذلك انما يحذون حذو جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يخرج عن حدود القرآن ولو قيد شعرة. وهؤلاء هم أهل بيت النبوة الذين اختارهم الله تبارك وتعالى واصطفاهم، وفضّلهم على غيرهم وطهرهم.

ثانياً: أن علماء المسلمين من غير أهل البيت عليهم السلام لا يستطيعون أن يتعاملوا مع القرآن الكريم بذلك النطاق الواسع الذي يتعامل به أهل البيت عليهم السلام معه، حتى إنهم عجزوا عن حلّ مثل هذه المسألة، بل غيرها كثير مما عجزوا عنه[1].

ومن هنا فإن هؤلاء العلماء قد أجابوا المتوكل بأنهم ليس عندهم من علم في خصوص تحديد الكثرة التي نذر المال بها، وهو ما لم يستطيعوا مع ادّعائهم العلم أن يهتدوا إليه، بل لم يهتدوا حتى إلى استنطاق القرآن الكريم حوله كما فعل الإمام عليه السلام بعد أن استنطق إحدى آياته متّخذاً منها دليلاً وحجّة على ما يفتي به؛ لأنه عدل القرآن[2] وشريكه[3].

---

(1) كما هو الحال في قصة المنصور مع الإمام الصادق عليه السلام حينما مات أحد غلمان المنصور، فعمد غلام له آخر الى قطع رأس ذلك الغلام الميت، وجواب الصادق عليه السلام له عن حكم هذا الغلام بالدليل القرآني حيث عجز العلماء الآخرون عنه حتى قال لهم المنصور: أيعجز أحدكم عن أن يجيب بمثل هذا الجواب؟

(2) فهو عليه السلام عدل القرآن لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢. مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها. سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(3) وهو عليه السلام شريك القرآن؛ لأنه قد ورد في الزيارة الشريفة لجدّه السبط الشهيد عليه السلام: «السلام عليك يا شريك القرآن». المزار (المشهدي): ٤٢٦. الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤١.

ثالثاً: أن الذي يبدو هنا أن الكثير يطلق عليه الرقم ثمانون[١].

موقف الأتراك من أهل البيت عليهم السلام

واستقرّ الإمام عليه السلام في ذلك البيت أياماً قليلة، لكن الدنيا كانت تغلي من حوله؛ فالوضع كان حرجاً جداً، ودفة البلاد السياسية كانت بيد الأتراك الذين كانوا يتّصفون بموقفهم المتشدّد من أهل البيت عليهم السلام والمتّسم ببغضهم إيّاهم، وبنصب العداء لهم. ولو أننا أنعمنا النظر في تاريخ الأتراك لوجدنا أن مواقفهم من أهل البيت عليهم السلام كانت مواقف عجيبة وغريبة، فكان تاريخهم على امتداد هذه الفترة الزمنية وصولاً حتى أيامنا هذه يمثّل موقفاً عدائياً لهم (صلوات الله وتسليماته على جدّهم وعليهم) بشكل خاص، ولشيعتهم بشكل عام.

وكان الإمام عليه السلام خلال وجوده في تلك الفترة قد أُخضع لمراقبة شديدة جدّاً؛ لأن الأتراك كانوا يخشون من أن يكون له عليه السلام دور في الوقوف بوجه مخطّطاتهم، أو من أن يكون له دور في أي ثورة يمكن أن تندلع ضدّهم أو ضد نظام الحكم العباسي. ومن هنا فإن الناس كانوا يخشون من أن يدخلوا عليه، وكان بعض أصحاب الإمام الخلص يزورونه ليلاً بشكل سري بعيداً عن الأعين والرقباء، لأن الطوق الذي ضربه الأتراك حول الإمام كان طوقاً شديداً وقاسياً، وقد وصل الحدّ بهذا الطوق الى أن من يزوره بإذن من السلطات كانت أنفاسه تُحصى عليه خلال تلك الزيارة لشدّة المراقبة التي

---

(١) وهناك استنتاج رابع هو محاولة التعتيم على الإمام عليه السلام من قبل المتوكّل حينما لم يحاول سؤال الإمام عن مسألته، ولم يسأله إلّا بعد أن أعيا الجوابُ وعّاظَه، وبعد تنبيه حاجبه له، وكأنه غافل عن حقيقة أمر الإمام عليه السلام. وهو أمر يؤكّده ما طرحه المحاضر بشكل مفصّل في محاضرة (عصر الإمام الصادق عليه السلام).

كانت تفرض عليه وعلى زائريه (سلام الله عليه). وقد استمرت الحال هذه على ذلك المنوال فترة طويلة.

الإمام عليه السلام يصف علاجاً للمتوكّل

يروي المؤرخون أن المتوكل مرض من خُرّاج أصابه، فأشرف منه على الموت، ولم يجسر أحد أن يمسّه، فنذرت أمّه إن عوفي أن تحمل إلى أبي الحسن عليه السلام أموالاً نفيسة، فقال له وزيره الفتح بن خاقان: لو بعثت إلى هذا الرجل، فسألته، فربما كان عنده شيء. فسأل عنه الإمام عليه السلام، فقال: «خذوا كُسب[1] الغنم، فديفوه بماء ورد، وضعوه على الخُرّاج». فلمّا فُعل ذلك برأ المتوكل، وخرج منه ما كان فيه، فحملت أمّ المتوكّل عشرة آلاف دينار تحت ختمها إلى الإمام الهادي عليه السلام.

وبعد فترة سُعي إلى المتوكّل بالإمام الهادي عليه السلام أن عنده أموالاً وسلاحاً، فأمر المتوكّل سعيداً الحاجب أن يهجم عليه ليلاً، ويأخذ ما يجد عنده، فصعد سعيد سقف داره ولم يهتدِ أن ينزل ـ وكانت الدنيا شديدة الظلمة ـ فنادى أبو الحسن عليه السلام: «يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة». فلما دخل الدار قال عليه السلام: «دونك والبيوت».

فما وجد عنده إلّا المصحف الذي كان الإمام الهادي عليه السلام يقرأ فيه، وكيساً مختوماً، وبدرة مختومة، وسيفاً تحت مصلّاه عليه السلام، فأتى به مع كلّ ذلك المتوكّل، فلما رأى المتوكّل ختم أمّه على البدرة سألها عنها، فحكت نذرها الذي نذرته حينما مرض، فردّها إليه، فقال الحاجب: اعزز علي بدخولي دارك بغير إذنك، ولكني مأمور. فقال عليه السلام: «يا سعيد،

(١) الكسب ـ على وزان قفل ـ: عصارة الدهن. الصحاح ١: ١٢١ ـ كسب.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]...»[2].

وهكذا فإن سعيداً الحاجب لم يجد عند الإمام سوى تلك البدرة التي بعثت بها أم المتوكل إليه، والمصحف الذي كان يقرأ به الإمام عليه السلام، عند جلوسه للتعبد والتهجد في محرابه. وهذا ما حمل المتوكّل على أن يعتذر من الإمام عليه السلام متذرّعاً عنده معلّلاً تصرّفاته هذه بما تصله من تقارير وأخبار عن أنه يجمع السلاح في بيته ليقوم بثورة ضده.

زرافة الحاجب ومعلم أبنائه

وفي هذا المضمار يروي زرافة الحاجب أن المتوكل أراد أن يذلّ جماعة من الناس، وفي الوقت نفسه أراد أن يرفع من قدر وزيره الفتح بن خاقان، وكان عندهم يوم في السنة يعرضون فيه الجيش، فنادى المنادي في يوم العرض أن يخرج الناس مشياً على أقدامهم، ولا يركب إلّا المتوكّل والفتح بن خاقان. فخرج الناس مشاة، وخرج معهم الإمام الهادي عليه السلام ماشياً أيضاً. وكان الإمام بديناً، فكان العرق يتصبّب منه. يقول زرافة الحاجب: دنوت إليه، فقدمت له كتفي فوضع يده عليها، فسمعته يقول: «والله، لست بأقل من ناقة صالح»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[3].

فلم أدرِ ماذا أراد الإمام بذلك، فلما انتهى العرض عاد المتوكل مع وزيره، وقد أعطوا الإذن للناس بالركوب، فقدّمت للإمام برذوناً فركبه وعاد إلى البيت وهو يتصبب عرقاً، ورجعت إلى البيت.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٧ ـ ٥١٨.
(٣) هود: ٦٥.

وكان عندي مؤدب لأولادي يتشيع، فأقبلت إليه وقلت له: سمعت اليوم من إمامك شيئاً. قال: ما هو؟ فرويت له الحادثة، فقال: بالله عليك، أنت سمعت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذن هيّئ نفسك، واجمع مالك وولدك، فسيحدث شيء بعد ثلاثة أيام. فقلت: من أين لك ذلك؟ قال: لا عليك.

فنهرته وأغلظت له القول، ولكن وقع في نفسي من قوله شيء، فأصلحت شأني، وخبأت ما كان عندي من أموال عند من لي في نفوسهم ودّ ومحبّة. وصدق الإمام عليه السلام فيما قاله؛ حيث قتل المتوكّل بعد ثلاثة أيام كما تقول الرواية: وفي اليوم الثالث أصبحنا على أصوات الناس، وإذا ابنه المنتصر ومعه القواد الأتراك: وصيف وبغا وباغر وقد دخلوا عليه وبعجوه بسيوفهم هو ووزيره الفتح بن خاقان، وقطعوهم إرباً إرباً حتى اختلط لحمهما مع الخمرة، وتناثر في الكؤوس. وهنا أدرك زرافة سر قول الإمام عليه السلام[(١)].

ومثل ذلك ما ورد عن علي بن يقطين بن موسى الأهوازي إذ قال: كنت رجلاً أذهب مذاهب المعتزلة، وكان يبلغني من أمر أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام ما أستهزئ به ولا أقبله، فدعتني الحال إلى دخولي بـ«سرّ من رأى» للقاء السلطان، فدخلتها، فلما كان يوم وعد السلطان الناس أن يركبوا إلى الميدان، وكان من غد ركب الناس في غلائل القصب، بأيديهم المراوح وركب أبو الحسن عليه السلام في زي الشتاء، وعليه لباد وبرنس، وعلى سرجه تجفاف طويل، وقد عقد ذنب دابّته، والناس يهزؤون به وهو عليه السلام يقول: «ألا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[(٢)] ...».

---

(١) انظر: بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ـ ١٩٤ / ٩، ٩٢: ٢٣٤ ـ ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) هود: ٨١.

فلما توسطوا الصحراء، وجازوا بين الحائطين، ارتفعت سحابة، وأرخت السماء عزاليها، وخاضت الدوابّ إلى ركبها في الطين، ولوثتهم أذنابها، فرجعوا في أقبح زي، ورجع أبو الحسن عليه السلام في أحسن زي، ولم يصبه شيء مما أصابهم فقلت: إن كان الله عز وجل أطلعه على هذا السرّ، فهو حجة. ثم إنه لجأ إلى بعض السقايف، وكنت قد عزمت أن أسأله عن الصلاة في عرق الجنب، فلما قرب نحّى البرنس، وجعله على قربوس سرجه ثلاث مرات، ثم التفت إليّ وقال: «إن كان من حلال فالصلاة في الثوب حلال، وإن كان من حرام فالصلاة في الثوب حرام». فصدقته وقلت بفضله[1].

وهكذا كانت هذه الحادثة سبباً لرجوع علي بن يقطين الأهوازي هذا إلى القول بإمامة الإمام الهادي عليه السلام وإلى مشايعته.

المبحث الرابع: الإمام الهادي عليه السلام بعد عهد المتوكل

ولما ذهب المتوكّل إلى حيث يستحقّ، لم يسترح الإمام عليه السلام في حياته، حيث ظلّت المشاكل والقضايا تلاحقه سيّما مع وجود الأتراك الذين أشرنا إلى مواقفهم قبل قليل. وكانت حياة الإمام عليه السلام ومهامّه في هذه الفترة قد توزعت بين عدّة أوقات لأداء عدد من الوظائف التي أراد عليه السلام من خلالها أن يوصّل المذهب الحقّ هناك، ومنها

١ ـ تقديم المعونات المادّية والمالية لشيعته من فقرائهم ومحتاجيهم ومعوزيهم.

٢ ـ برّ أصحابه وتلامذته وإخوانه وصلتهم.

٣ ـ الانصراف إلى مهامّه الخاصة ورعاية أهل بيته.

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ١٨٧ ١٨٨ ٧٧: ١١٨، ١٤٣، مدينة معاجز الأئمّة ٧: ٤٩٧.

٤ ـ التفرّغ لعباداته ومناجياته وتهجّداته التي كانت تشغل مساحة عريضة من حياته الشريفة المباركة.

٥ ـ السعي لتخليصهم من المظالم التي يوقعهم فيها أعداؤهم وأعداء أهل البيت عليهم السلام.

نماذج ومواقف من سعيه عليه السلام في ردّ مظالم المؤمنين

وقد كان من أخلاق الإمام عليه السلام السامية ودأبه أنه كان يرعى الصغير والكبير على حد سواء، وكان يجير كل من كان يفزع إليه، فيردّ إليه لهفته، وسوف نضرب هنا بضعة أمثلة للتدليل على ما نذهب إليه في هذا الخصوص، وهي:

الأول: ردّ لهفة يونس النقاش

فمن ذلك أن يونس النقاش كان من أصحاب الإمام عليه السلام، وكان يخدمه، فجاءه يوماً يرعد، وقال له: يا سيدي، أوصيك بأهلي خيراً. فقال عليه السلام: «ما الخبر؟». قال: عزمت على الرحيل. فقال عليه السلام وهو يتبسّم: «ولم يا يونس؟». قال: إن موسى بن بغا وجّه إليّ بفص ليس له قيمة[1] لأنقشه، فلما أقبلت عليه أنقشه كسرته إلى نصفين، وموعده غداً، وعقوبته لي إما ألف سوط، أو القتل. فقال عليه السلام: «امضِ إلى منزلك، إلى غد فرج؛ فما يكون إلّا خيراً».

فلما كان من الغد جاء إلى الإمام عليه السلام وهو يرعد، فقال: قد جاء الرسول يلتمس الفص. فقال عليه السلام: «امضِ إليه؛ فما ترى إلّا خيراً». قال: وما أقول له يا سيدي؟ فتبسّم عليه السلام وقال: «امضِ إليه، واسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلّا خيراً». فمضى، وما لبث أن عاد وهو يضحك، فقال للإمام عليه السلام: قال لي يا

---

(١) أي لا يقدّر بثمن؛ لارتفاع قيمته.

سيدي: لي جاريتان اختصمتا عليه، فيمكنك أن تجعله فصّين ونغنيك. فقال الإمام عليه السلام: «اللهم لك الحمد؛ إذ جعلتنا ممن يحمدك حقّاً، فأيش[1] قلت له؟». فقال: قلت له: أمهلني حتى أتأمّل أمره كيف أعمله. فقال عليه السلام: «أصبت»[2].

الثاني: ردّ لهفة أبي موسى عمّ المنصوري

ومنه ما يرويه المنصوري عن عمّ أبيه، وكان من شيعة الإمام الهادي عليه السلام، وممّن يتردّد عليه، وقد جبهه المتوكّل بذلك، فكان أن لجأ إلى الإمام الهادي عليه السلام يستنجد به، ويطلب منه أن يدعو الله له أن يعود حاله كما كان عند المتوكّل، ويعيد إليه ما قطع عنه من صِلات، تقول الرواية عنه: حدثني عم أبي قال: قصدت الإمام عليه السلام يوماً فقلت: يا سيدي، إن هذا الرجل قد اطّرحني وقطع رزقي وملّني، وما أتّهم في ذلك إلّا علمه بملازمتي لك، فإذا سألته شيئاً منه يلزمه القبول منك، فينبغي أن تتفضل علي بمسألته. فقال عليه السلام: «تكفى إن شاء الله».

فلما كان في الليل طرقني رسل المتوكّل، رسول يتلو رسولاً، فجئت والفتح على الباب قائم، فلمّا دخلت عليه قال: يا أبا موسى، نشغل عنك، وتنسينا نفسك؟ أي شيء لك عندي؟ فقلت: الصلة الفلانية، والرزق الفلاني. وذكرت أشياء، فأمر لي بها وبضعفها، فقلت للفتح: هل جاء علي بن محمد إلى هنا؟ فقال: لا. فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا. فوليت منصرفاً، فتبعني وقال لي: لست أشك أنك سألته دعاء لك، فالتمس لي

(١) أي «أيّ شيء»؟.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٢٨٨ ـ ٢٨٩ / ٥٥٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٢٨، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٣٩ / ٢٤٣٩.

منه دعاء. فلما دخلت إليه عليه السلام قال لي: «يا أبا موسى، هذا وجه الرضا». فقلت: ببركتك يا سيدي، ولكن قالوا لي: إنك ما مضيت إليه، ولا سألته. فقال عليه السلام: «إن الله تعالى علم منا أنا لا نلجأ في المهمات إلّا إليه، ولا نتوكّل في الملمّات إلّا عليه، وعوّدنا إذا سألناه الإجابة، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا».

ثم أخبرته بطلب الفتح، وقلت له: إن الفتح قال لي كيتَ وكيتَ. فقال عليه السلام: «إنه يوالينا بظاهره، ويجانبنا بباطنه، الدعاء لمن يدعو به. إذا أخلصت في طاعة الله، واعترفت برسول الله صلى الله عليه وآله وبحقّنا أهل البيت، وسألت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يحرمك». فقلت: يا سيدي، فتعلّمني دعاء اختصّ به من الأدعية. قال: «هذا الدعاء كثيراً ما أدعو الله به، وقد سألت الله ألّا يخيب من دعا به في مشهدي بعدي، وهو: يا عدتي عند العدد، ويا رجائي والمعتمد، ويا كهفي والسند، ويا واحد يا أحد، ويا قل هو الله أحد، أسألك اللهم بحقّ من خلقته من خلقك ولم تجعل في خلقك مثلهم أحداً، أن تصلّي عليهم، وتفعل بي كيتَ وكيتَ».

يقول عم المنصوري: فما دعوت الله عزّ وجلّ في شدّة من الشدائد بهذا الدعاء إلّا استجاب لي دعائي[1].

شرائط الدعاء

وعلى أية حال فإنني أود أن أشير إلى أن هنالك موضوعاً هامّاً يتعلّق بالدعاء، لكنني لا أستطيع أن أخوض فيه الآن بشيء من التفصيل؛ لأنه ليس هنالك من مجال له. أما ما أودّ أن أشير إليه، فهو أن بعض الناس يتساءل عن أسباب عدم استجابة دعائه حينما يدعو الله تبارك وتعالى

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٨٥ ـ ٢٨٦ / ٥٥٥، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٤٣٦ / ٢٤٣٧.

مثلاً، مع أنه ربما يتغافل عن حقيقة ـ أو ربما يكون فعلاً غافلاً عنها ـ هي أن لكل دعاء شروطاً ودواعي تقتضي إجابته معها، وهذه الشروط لابدّ من أن تتوفّر عند الداعي حتى يستجاب الدعاء. وسوف نتعرّض لهذا الأمر مفصّلاً إن شاء الله تبارك وتعالى فيما إذا وفّقنا جلّ شأنه لذلك(١).

إذن فالامام عليه السلام كان يرعى أصحابه في غيابهم وفي حضورهم، وكان يبرّهم ويصلهم، ويقضي حوائجهم، ويحدب عليهم كما يحدب الأب على ابنه؛ سواء تلك التي تتعلّق بهم عند السلاطين أو غيرها. ولقد كانوا عليهم السلام كلّهم عطاء، ورحمة للمسلمين جميعاً.

رؤيا عيسى الكاتب

يقول عيسى الكاتب: رأيت ليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يرى النائم كأنه نائم في حجرتي، وكأنه دفع إلي كفّاً من التمر من مكتل كان أمامه، فلما عددته وجدته خمساً وعشرين تمرة، فتأوّلتها أني سوف أعيش خمساً وعشرين سنة.

ثم ما لبثت إلّا قليلاً حتى أُقدم أبو الحسن علي بن محمد عليه السلام ومعه أحد

---

(١) يذهب علماء الأخلاق والعرفان إلى أن للدعاء لونين من الشروط:

الأول: شروط الصحة. ومنها كون الداعي مسلماً، وألّا يدعو الله تبارك وتعالى فيما فيه ضرر للآخرين، وألّا يكون دعاؤه في شيء محرم وألّا يكون دعاؤه ملحوناً، وألّا يكون الإنسان قد ارتكب معاصي تحول دون استجابة دعائه؛ فقد ورد في (دعاء كميل) عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٢، وغير ذلك.

الثاني: شروط الكمال. ومنها اختيار الزمان المخصّص للدعاء، واختيار الأمكنة المشرّفة كالمساجد وأضرحة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار (صلوات الله وسلامه على جدّهم وعليهم)، والتطييب، وكون الإنسان على طهارة، وغير ذلك.

القواد، فأنزله في حجرتي، وكان القائد يبعث ويأخذ من العلف من عندي، فسألني يوماً: كم لك علينا إزاء ما أخذنا منك؟ فقلت: لست آخذ منك شيئاً من ثمنه. فقال لي: أفتحب أن تدخل إلى هذا العلوي فتسلم عليه؟ قلت: لست أكره ذلك. فدخلت فسلمت عليه، وقلت له: إن في هذه القرية كذا وكذا من مواليك، فإن أمرتنا بإحضارهم فعلنا. فقال: «لا تفعلوا». فقلت: فإن عندنا تموراً جياداً، فتأذن لي أن أحمل لك بعضها؟ فقال: «إن حملت شيئاً لم يصل إليّ، ولكن احمله إلى القائد؛ فإنه سيبعث إليّ منه».

فحملت إلى القائد أنواعاً من التمر، وأخذت نوعاً جيداً في كمّي، فحملته إليه، ثم جئت، فقال لي القائد: أتحب أن تدخل على صاحبك؟ فقلت: نعم. فدخلت، فإذا قدّامه من ذلك التمر الذي بعثت به إلى القائد، فأخرجت التمر الذي معي، فوضعته بين يديه، فأخذ كفّاً من تمر فدفعه إليّ، فعددته فإذا هو كما رأيته في المنام خمس وعشرون تمرة، لم يزد ولم ينقص. فقلت: سيّدي، زدني. فقال عليه السلام: «لو زادك رسول الله صلى الله عليه وآله لزدناك»[1].

إذن فآل محمد صلى الله عليه وآله كلهم عطاء، وكلهم رأفة جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين كلّهم على الأرض تسير بينهم ومعهم؛ كي يفيض برحمته عليهم بهم، ولا يعذبهم[2].

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٤١١ ـ ٤١٢ / ١٦. وقريب منها عن عيسى عن أبي حبيب البناجي مع الإمام الرضا عليه السلام في عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٧ ـ ٢٢٨ / ١٥. دلائل الإمامة: ٣٦٧ ـ ٢٦٨ / ٣٢١.

(٢) قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الأنفال: ٣٣.

إن آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله رحمة وعطاء للمسلمين كافّة ، ومن الصعب والعسير على المرء أن يرى هذا الإعراض الكبير عند المسلمين عن هذا العطاء الضخم ، في حين أنه يجد عندهم تهالكاً عجيباً غريباً على عطاء الآخرين الذي لا يصل من ناحية القيمة العلمية ، ولا كماً ولا كيفاً إلى عطاء أهل بيت النبوة عليهم السلام . وهذا في واقع الأمر لا يعود سلباً على أهل البيت عليهم السلام ، بل إنه إنما يكشف عن سوء حظ هؤلاء الناس الذين يبتعدون عن هذه السلسلة الذهبية التي تمثل حلقة الوصل الوحيدة بينهم وبين الله عز وجل ؛ بما أنهم امتداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الأرض ؛ سواء كان على مستوى الدم ؛ حيث إنهم ذريته صلى الله عليه وآله ، أو على مستوى العلم والإيمان والقيادة والالتزام والسير وفق تعاليم الدين ؛ لأنهم عليهم السلام خلفاؤه وقادة الأمّة من بعده ، وبما أنهم أوصياؤه على هذه الأمّة.

ثم أو ليس رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله هو القائل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ، ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[١]؟

إذن فهم عليهم السلام لا يضرّهم ابتعاد الناس عنهم ، بل إن ذلك الابتعاد يضرّ الناس أنفسهم ؛ لأنهم عليهم السلام عطاء بحدّ ذاته ؛ فهم ليسوا بحاجة إلى أحد ، في حين أن الكلّ محتاجون إليهم .

رجع

وعلى أية حال عاش الإمام عليه السلام الفترة المتبقية من عمره في سامراء التي

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل) ١٥: ٢٢ ، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها ، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢.

قال عنها كما يروي المنصوري عن عمّه: «يا أبا موسى، أُخرجت إلى «سرّ من رأى» كرهاً، ولو أُخرجت عنها أُخرجت كرهاً». فقال: ولم يا سيدي؟ قال عليه السلام: «لطيب هوائها، وعذوبة مائها، وقلّة دائها». ثم قال: «تخرب «سرّ من رأى» حتى يكون فيها خان وقفاً للمارّة. وعلامة خرابها تدارك العمارة في مشهدي من بعدي:

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا»[1]

وهكذا شاء الله تبارك وتعالى لهذا المكان أن يكون مأوى لملائكته، وموضع عبادة لعباده المؤمنين، ومستجنّاً لأرواح الصالحين منهم، وأن يكون بقعة من البقاع المقدّسة، والأراضي الطاهرة التي يعبد الله على ظهرها؛ لوجود الإمامين العسكريين عليهما السلام فيها.

المبحث الخامس: وفاة الإمام عليه السلام

وفي سنة (٢٥٤) هجرية توفي الإمام عليه السلام شهيداً، وعلى هذا فيكون عمره أربعين سنة أو أكثر من ذلك بقليل. وقد استشهد مسموماً بعد أن دسّ له السم المهتدي بن المعتصم العبّاسي، غير أن المؤرخين لم ينصّوا على نوع الطعام الذي دُسّ له السمّ فيه. ومهما كان فبعد أن سرى السم الرهيب في جسده المقدّس راح عليه السلام ينازع ذلك السم، ويصارع الموت، ثم أخذ ينظر يميناً وشمالاً، ثم شخص ببصره تلقاء المدينة المنوّرة حيث جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأُمّه الزهراء عليها السلام، وبقية الأئمة عليهم السلام من آبائه المدفونين في البقيع.

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٨١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٩ / ٥٤٥، مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ٧: ٥٠٨، ٢٥٠٢.

ونودّ هنا أن ننبّه إلى حقيقة هي أنه مهما كانت البقاع التي يسكنها الأئمة عليهم السلام، وأينما كانت فإنهم يظلّون يحنّون إلى تلك البقعة المقدسة.. إلى دار الهجرة حيث مدينة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وحيث مهبط الوحي ومقام النبوّة. وهكذا راح عليه السلام يصارع الموت، وأهل بيته من حوله، وهم يرون ما هو فيه، ويعيشون أشدّ حالات الألم. ولما أسلم عليه السلام الروح إلى بارئها، وشيّعوه، خرجت جارية من وراء جنازته وهي تصيح: الله يا يوم الاثنين ماذا فعلت بنا؟

وهكذا كان يوم وفاة الإمام عليه السلام في سامراء يوماً مشهوداً؛ حيث إنها قد ضجت وخرجت عن بكرة أبيها، وإن الناس فيها كما يقول المؤرخون قد خرجوا كلهم أجمعون، وهم يضجّون بالنحيب والبكاء، وهرعوا أفواجاً إلى تشييع جنازة الإمام عليه السلام.

وإذا كان في انتظار الإمام عليه السلام من يشيعه ومن يمشي وراء جنازته، فإن جدّه الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم لم يكن هنالك من يقف خلفه أو يشيعه، فضلاً عمّن يدفنه، ولذا فقد وقفت الحوراء زينب تنظر حائرة إلى أخيها، وهي ترى الأنصار وقد حملهم أبناء عشيرتهم وعمومتهم، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله مسجّى على الصعيد ليس له من أحد يحمله أو يدفنه، فدارت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم من مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم من أحد يواري هذا السليب؟»:

تعالوا لابنكم غسلوه مهو اعزيزكم جا ليش عفتوه

فنادى عمر بن سعد مجيباً لها على استصراخها واستنهاضها: ياخيل الله اركبي، وبالجنّة أبشري، وحطّمي صدر الحسين. فتسابقت الخيول

لرضّ ذلك الصدر الذي حوى علم رسول الله صلى الله عليه وآله وإيمانه:

ولمــا قــضى للــعُلا حــقَّها وبـــالسيف شــيَّد بُــنيانَها
تَــرَجَّل للــموتِ عــن سـابقٍ لهُ أخــلَتِ الخــيلُ مَــيدانَــها
تــريبَ المُــحَيَّا تــظنُّ السَّــمَا بأنَّ عـــلى الأرضِ كَــيوانَــها
غــريباً أرى يـا غـريبَ الدِّيـار تـــوسّد خـــديه كــثبانَها[١]

* * *

أتراني أُعـير وجـهيَ صـوناً وعلى وجـهِهِ تـجولُ الخـيولُ

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.